

مشاهير المتقدمين والمناخرين

ملك شاعر تعيس

﴿ المعتمد بن عباد ملك الاندلس ﴾

(وخصمه ابن تاشفين باني مراكش وامير المغرب)

في هذه الترجمة تاريخ ثلاث دول بين الاندلس والمغرب يتضمن تفصيل
حالتها السياسية في اواخر القرن الرابع للهجرة وما كان من الاختباط بين
العرب والمغاربة والافرنج حين ضعف ملوك الاندلس

﴿ في كل جزء شرقي وغربي ﴾ رأينا في عام « الجامعة » الجديد ان نوسع باب
« المشاهير » توسيعاً تكمل به الفائدة لان تراجم مشاهير الارض عبارة عن تاريخ الارض
نفسها . ولذلك عزمنا على ترجمة اثنين من المشاهير في كل جزء : واحد من « مشاهير
الشرق » وواحد من « مشاهير الغرب » في تراجم مشاهير الشرق نقف على (الادواء والامراض
التي فتكت بالشرق وعلى جوانب القوة وجوانب الضعف فيه ليكون ذلك عبرة لابنائنا)
وفي تراجم مشاهير الغرب نقف على (الاصول السياسية والعلمية والادبية والفلسفية التي
رفعت الغرب الى مقامه الحالي بعد ان كان دون الشرق بدرجات) وبذلك يكون
(باب المشاهير) في الجامعة عبارة عن تاريخ لذيذ مفيد يشمل (الماضي والحاضر والمستقبل) معاً
﴿ حوادث المغرب الاخيرة ﴾ وقد اخترنا في هذا الجزء ترجمة المعتمد بن عباد
ملك الاندلس لعلاقة هذه الترجمة بحوادث المغرب التي حدثت في الايام الاخيرة وما فيها
من عبرة السياسة وفكاهة الادب وبيان كيفية قيام الدول القديمة في الشرق . وبالله من
عبرة التاريخ . فان رجلاً واحداً طامعاً جاهلاً يدعى « ابا حمارة » (وبعض الكتاب
الاوربيين يقول انه رجل وهمي لا وجود له) قدر منذ مدة على حصر سلطان مراكش في
فاس وكاد يسقطه عن عرشه مع ان الجالس على هذا العرش كان في الايام الغائرة صاحب

السلطان على افريقيا كلها وكان يمدّ يده من المغرب (مراكش) فيخضع ملوك العرب في الاندلس ويوقع بلوك الافرنج الطامعين في املاكه الاندلسية .

✽ اصل اسرة المعتمد ✽ لم تكن اسرة المعتمد متصلة بالملك منذ بدء امرها فان جدّها من العريش وكان يدعى نعيمًا . فسافر الى الاندلس واقام بقرب تومين من اقليم طشانه من ارض اشبيلية هو وابن له يدعى عطافاً . وامتدّ اعطاف هذا عمود النسب الى الظاهر محمد بن اسمعيل القاضي فهو اول من نبغ منهم في تلك البلاد حتى ولي قضاء اشبيلية . وكان يحيى بن علي بن حمود الحسني المنعوت بالمستعلي ملك (قرطبة) في ذلك الزمان . وكانت الفتن بين حكام الاندلس قائمة قاعدة . فسار المستعلي ملك قرطبة لاختضاع اشبيلية وكان مذموم السيرة . فلما حصر اشبيلية اتفق اهلبا على تولية القاضي محمد بن اسمعيل الذي تقدم ذكره وهجموا على ملك قرطبة فقتلوه وهو سكران . وقد روى ابو محمد ابن حزم الظاهري في كتاب «نقط العروس» رواية غريبة بشأن هذا القاضي الذي ارتقى الى منصة الملك وهي تدلّ على ذمته وامانته اذا كانت صحيحة . ولكن غرابتها تمنع من تصديقها . وتفصيل ذلك ان الخلافة في الاندلس كانت في اسرة الامويين . وقد ذكرنا في كتاب «ابن رشد وفلسفته» ان الحاجب المنصور وثب على الفتي هشام بن الحكم الخليفة الاندلسي واغضب السلطنة منه . فبعد انقضاء عشرين عاماً على موت هشام هذا ظهر رجل يُقال له «خلف الحضري» وادّعى انه هشام وانه كان مخبئاً من الخوف على نفسه . فلما سمع بذلك القاضي محمد بن اسمعيل الذي ولي اشبيلية ارسل واحضر الرجل من مسجد بقلعة رباح فباعه الناس وخطب له على جميع منابر الاندلس . قال ابن خلكان الذي نعتمد عليه في بعض هذه الترجمة «واقام المدّعي أنه هشام نيفاً وعشرين سنة والقاضي محمد بن اسمعيل في رتبة الوزير بين يديه والأمر اليه الى ان توفي المدّعي هشاماً فاستبدّ القاضي محمد بالأمر بعده» نقول ولعلّ هذه القصة لم تخرج عن كونها «اخلوقة» كما قال محمد بن حزم في كتاب نقط العروس .

وكانت وفاة القاضي صاحب اشبيلية في سنة ٤٣٣ للهجرة . خلفه ولده المعتضد بالله . وكان للمعتضد بالله ولدان وهما عمر وعباد . ثم افضى الأمر الى عباد فسمي بفخر الدولة ثم بالمعتضد . وكان جواداً شديداً جميل الوجه مكباً على الملاهي تزوج كثيرات من النساء وخطب في اجناسهنّ فرزق منهنّ عشرين ذكراً وعشرين انثى . ومن شعره

شربنا وجفن الليل يغسل كحله بماء صباح والنسيم رقيق
معتقة كالنهر اما بخارها ففضم واما جسمها فدقيق
ثم توفي بعلبة الذبحة في سنة ٤٦١ هـ وخلفه ابنه المعتمد على الله ابو القاسم محمد صاحب
الترجمة .

* * *

✽ المعتمد بن عباد ✽ ولما ولي المعتمد الحكم وجد نفسه في نعيم مقيم . قال —
ابن خلكان في ترجمة يوسف بن تاشفين يصف اشبيلية قاعدة ملكه « كانت من اجمل
المدن منظراً وموضعاً على نهر عظيم مستبحر تجري فيه السفن باليضائع جالبة من بلاد المغرب
وحاملة اليه . في غريبه رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف (كذا) من
الضياح كلها تين وعنب وزيتون . وهذا الموضع هو المسمى شرق اشبيلية . وتدير بلاد المغرب
كلها من هذه الاصناف . وفي جانب المدينة قصور المعتمد وابيه المعنض في غاية الحسن
والبهاء وفيها انواع ما يحتاج اليه من الطعام والمشروب والملبوس والمفروش » فانصرف ابن
عباد الى التمتع بتلك الخيرات . وقد قال عنه ابو الحسن علي بن القطاع السعدي في كتابه
لمح الملح « انه كان اندى ملوك الاندلس راحةً وارحيم ساحةً ولذلك كانت حضرته ملقى
الرحال وموسم الشعراء وما أف الفضلاء » تقول ولكن حفظ بلاد الاندلس كانت يقتضي
يومئذ اموراً غير التمتع بالملاذ والطرب لسباع الشعر . فان ملوك الافرنج كانوا قد وحدوا
كلمتهم بآراء تفرق كلمة ملوك الاندلس اي حكام اقاليمها واشتغالهم باخضاع بعضهم بعضاً
وصعموا على اخراج العرب من البلاد الاندلسية . ولذلك لما وصل الملك الفونس السادس
ملك كاستيل الى طليطلة واخذها في سنة ٤٧٨ بعد حصار شديد صاح الشاعر الطليطلي
عبد الله بن فرج بن غزنون ينذر قومه :

حثوا رواحلهم يا أهل اندلس فما المقام بها الا من الغلظ
السلك ينثر من اطرافه وأرى سالك الجزيرة منشوراً من الوسط
من جاور الشر لم يامن عواقبه كيف الحياة مع الحيات في سفط

وانقد صدق الشاعر فان ملوك الافرنج لم يكونوا يقصدون يومئذ باخضام طليطلة
اخضاع ملوك الاندلس لان هؤلاء كانوا يؤدون الجزية لهم اجتناباً للنزاع والقتال ولانقضاء
ذلك الزمن الذي كانت فيه الاندلس ساطنة عظيمة يؤدى ملوك الافرنج الجزية لها . وانما
كان غرضهم استرداد البلاد من العرب . وهذا هو السبب في رفض ملك الافرنج بعد

أخذه طليطلة الجزية من المعتمد بن عباد أكبر ملوك الاندلس . فانه ارسل اليه يطلب منه ان يتنزل عن الحصون التي بيده ويكون له السهل فقط . فغضب المعتمد الرسول وقتل من كان معه . فلما سمع بذلك ملك الافرنج اخذ بتأهب لمنازلته

اما مشايخ الاندلس وعلماءها فانهم لما رأوا هذا الخطر اجتمعوا وتشاوروا . ثم اتفقوا على استدعاء يوسف بن تاشفين من افريقيا لمساعدتهم على عدوهم مع ما في عبوره من الخطر . وكان يوسف بن تاشفين سلطان المغرب يومئذ وهو زعيم الدولة التي كانت تسمى « الملمثين » او المرابطين وهي من البربر . ولذلك قال المعتمد بن عباد حين رؤيته نفسه بين نارين « الفرنج والملمثون ضدان وان دهيئا من مداخلة الاضداد لنا فاهون الامرين امر الملمثين . ولئن يرعى اولادنا جمالهم احب الينا من ان يرعوا خنازير الافرنج »

❖ **دولة الملمثين** ❖ وقبل تفصيل الحوادث التالية يحسن بنا ان نذكر شيئا عن نشأة هذه الدولة القوية التي كان يوسف بن تاشفين رئيسها .

روى ابن الاثير في الجزء العاشر من تاريخه الكامل ابتداء دولة « الملمثين » فقال : قيل كان سبب تنقذهم ان طائفة من لمتونة خرجوا للغزو فغالقهم عدو لهم الى بيوتهم ولم يكن بها الا المشايخ والصبيان والنساء . فلما تحقق المشايخ انه العدو قادم عليهم امروا النساء ان يلبسن ثياب الرجال ويتلشن حتى لا يعرفن ويتقلدن السلاح . ففعلن ذلك . فلما اشرف العدو ظنهن رجلا فقال : هؤلاء عند حرمهم يقاثلون عنهن قتال الموت والرأي ان نسوق النعم ونفسي فان تبعونا قاتلناهم . وبينما هم يجمعون الانعام من المراعي اذ قد اقبل رجال الحلي فهجم عليهم النساء من جانب والرجال من جانب فقتلوا منهم كثيرين . وقد قتل من النساء اكثر منهم . ومن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه فلا يعرف الشيخ من الشاب . نقول ولعل هواء الصحراء ونسفه الرمال على الوجوه مع شدة الحر هي التي جعلتهم يتخذون اللثام سنة . وقد قال الشاعر في هذا اللثام منزلة اليهم

قومٌ لهم درك العلا في حمير وان اتقوا صنهاجة فهم هم
لما حووا احراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتأثروا

فمن ذلك يظهر انهم كانوا ينسبون الى حمير . وكانوا عدة قبائل اشهرها لمتونة وجداله ولطه . قال ابن الاثير . وكان اول مسيرهم من اليمن ايام ابي بكر الصديق رضي الله عنه فسيرهم الى الشام وانتقلوا الى مصر ودخلوا المغرب مع موسى ابن نصير وتوجهوا مع

طارق (فاتح الاندلس) الى طنجة . ثم انهم احبوا الانفراد فدخلوا الصحراء واستوطنوها
لهذه الغاية . ففي سنة ٤٤٨ هـ توجه رجل منهم اسمه جوهر من قبيلة « جدالة » الى افريقيا
طالباً للحج فمرّ ببقية بالقيروان لعله ابو عمران الفاسي وعنده جماعة يتنهبون فاعجبهم حالهم .
ولما قفل راجعاً من الحج قصد الفقيه وقال له « ما عندنا في الصحراء من هذا شي غير
الشهادتين والصلاة في بعض الخاصة فابعث معي من يعلم شرائع الاسلام . فارسل معه
رجلاً اسمه عبدالله بن يس الكرولي فاتيا قبيلة لمثونه (اشهر قبائل المثلثين) فنزل جوهر
عن جملة واخذ بزمام حمل عبدالله بن يس تعظيماً لحامل شريعة الاسلام . فاقبل الناس على
جوهر وسألوه عن الفقيه فقال « هذا حامل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء
بعلمكم ما يلزم في دين الاسلام » فرحبوا بها وقالوا اذكر لنا شريعة الاسلام فعرّفهم الفقيه
عقائد الاسلام وفرائضه فقالوا « اما ما ذكرت من الصلاة والزكاة فهو قريب واما قولك من
قتل يقتل ومن سرق يقطع ومن زنى يُجلد او يُرجم فامر لا نلتزمه . اذهب الى غيرنا »
فرحل جوهر والفقيه عنهم . قال ابن الاثير « فنظر اليها شيخ كبير فقال لا بد وان يكون
لهذا الجمل في هذه الصحراء شأن يذكر في العالم » نقول ولعل ذلك قيل من بعد ان صار
له ذلك الشأن

ثم انتهى جوهر والفقيه الى جدالة قبيلة جوهر فدعاهم الفقيه والقبائل التي تجاورهم الى
حكم الشريعة فمنهم من اطاع ومنهم من أعرض . واجتمع المخالفون وتألبوا فقال عبدالله
بن يس الفقيه للذين اطاعوا « قد وجب عليكم ان تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وانكروا
شرائع الاسلام واستعدوا لقتالكم فاقبلواكم راية وقدموا عليكم اميراً » فقال له جوهر : انت
الامير فقال : لا انما انا حامل امانة الشريعة ولكن انت الامير فقال جوهر « لو فعلت هذا
لنسلط قبيلي على الناس ويكون وزر ذلك علي » ثم انهما قصدا ابا بكر بن عمر رأس قبيلة
لمثونة وعرضا عليه الامارة فاجاب فسماه الفقيه « امير المسلمين » وجمع اليه من حسن اسلامه
وحثهم على الجهاد وسماهم « المرابطين » ثم استألوا اليهم نحو الف رجل من الذين اعرضوا عن
الشريعة فجمعهم في مكان وخندقوا عليهم ثم قتلهم وبذلك خلصوا من مقاومهم ودانت لهم
اكثر قبائل الصحراء . ولما انفرد ابو بكر وابن يس بالامر دون جوهر داخله الحسد فشرع
سراً في افساد الأمر فحكم عليه بالقتل لانه نكث البيعة . ثم ضاقت الصحراء بالمثلثين فخرجوا
منها فحاربهم اهل السوس الاقصى وهزمهم وقتلوا الفقيه ابن يس . فعاد ابو بكر بن عمر
فجمع جيشاً من الف راکب ورجع اليهم فاجتمع عليه منهم ومن زناته اثني عشر الف فارس

ومنعه من العبور الى الاندلس حيث كان يقصد للغزو والجهاد . فدعا ابو بكر قائلاً « اللهم ان كنا على الحق فانصرنا والا فارحنا من هذه الدنيا » ثم قاتلهم وصدق هو واصحابه فهبزموهم وغنموا اموالهم واسلابهم . وبعد ذلك حارب ابو بكر سجلماسة واخذها . فدانت له تلك الجهات وكان له ابن عم يدعى يوسف بن تاشفين من لمتونة ايضاً فاستعمله على سجلماسة ثم عاد الى الصحراء .

✽ **يوسف بن تاشفين صاحب المغرب** ✽ وكان يوسف هذا رجلاً حازماً داهية حسن السيرة فساس الناس سياسة استمالتهم اليه ولم يأخذ منهم غير الزكاة . وبعد سنة عاد ابو بكر الى سجلماسة وجيزه بجيش لفتح السوس ففتح على يديه . وفي سنة ٤٦٢ توفي ابو بكر بن عمر بالصحراء فاجعت قبائل المرابطين على تمليك يوسف بن تاشفين واقبوه « امير المسلمين » وكانت الدولة في بلاد الغرب لزناة فخارهم ابن تاشفين واستخرج البلاد منهم بلداً بلداً بايسر سعي . فلأت سطوته القلوب واحبته رعيته وصلت احوالهم به . وكانت قبائل المصامدة اشد اهل المغرب فقصد يوسف بن تاشفين جبلهم واختر بقربه بقعة متوسطة في المغرب كالقيروان في افريقيا وبنى فيها مدينة « مراکش » ليتخذها قاعدة لحروبه مع اهل تلك الجبال اخضاعاً لهم وقد جعلها مقره . وكان موضع هذه المدينة ملجأ للصوم ولذلك كان المسافرين يقولون بعضهم لبعض « مراکش » اي مرّاً مسرعاً ومن هنا اشتق اسمها . غير ان الأمن استلب في ما حوالها بعد اهتمام ابن تاشفين بها . فلما كان ابن تاشفين البلاد من تلمسان الى ساحل البحر المحيط وفيها سبته وطنجه وسلا وغيرها .

فلما ضعف سلطاناه الى هذا الحد طمحت نفسه الى الاندلس فانشأ السفن لنقل جنوده اليها . فاتفق ملوك الاندلس (العرب) على مقاومته خوفاً على ممالكهم منه واعترضوه براكبهم العديدة وهددوه بموالاة الافرنج عليه اذا اراد بهم شراً . ولكن لما قصد الفونس السادس ملك كاستيل وصاحب طليطلة التي جعلها قاعدة بلاد الافرنج محاربة المعتمد بن عباد صاحب قرطبة وطليطلة وغيره من ملوك الاندلس اتفق الاندلسيون كما تقدم على الاستنجاد بيوسف ابن تاشفين لاختيارهم اهون الشرين . فاجابهم ابن تاشفين وعبر الى الاندلس لمحاربة العدو المشترك ونفسه تحذنه ولا شك بارتياح تلك البلاد التي كانت منبع الثروة والخيرات

ولما عبر يوسف ابن تاشفين الى الاندلس بجيوشه عبر معه من الجبال ما اغص الجزيرة وارفع رغاؤها الى عنان السماء ولم يكن اهل الاندلس راءاً واقط جملاً ولذلك كانت خيولهم

تجفل من صورتها وصوتها . فكانت اذا حضرت الجمال الحرب تفرت خيل الافرنج منها .
 اما الملك الفونس (اذفونش) فانه لما رأى اجتماع عزائم العرب عليه علم « انه عالم
 نطّاح » فاستنفر الفرنجة للخروج فخرجوا ونزلوا في مكان افنج يسمى الزلاقة بالقرب من بطليوس
 فلقبهم العرب والمغاربة هناك وجرت بين الفريقين وقعة هائلة كان فيها النصر لجيش يوسف
 بن تاشفين . ولم يفلت من الافرنج الا الملك وقليلون من جنده . فعاد الامل الى العرب
 في الاندلس وأمنوا بعض الامن على البلاد التي كانوا يقطنونها

✽ ابن تاشفين والاندلس ✽ ولما كان المعتمد ابن عباد صاحب قرطبة واشبيلية
 اكبر ملوك الاندلس يومئذ استزار يوسف ابن تاشفين فزاره يوسف في قصره في اشبيلية
 وشاهد ما فيه من البذخ والترف . وكان معه بعض اصحابه فصاروا ينهبونه الى تامل تلك
 الحال ويقولون له « ان فائدة الملك قطع العيش فيه بالنعم واللذة كما هو المعتمد واصحابه »
 وكان من طبع ابن تاشفين الاقتصاد والتدبير وقد صرف عمره في شطلف العيش فاجاب
 مغريه بهذا الجواب البديع « الذي يلوح لي من امر هذا الرجل (يعني المعتمد) انه مضيع
 لما في يديه من الملك لان هذه الاموال التي تعينه على هذه الاحوال لا بد ان يكون
 لها ارباب لا يمكن ابدًا اخذ هذا القدر منهم على وجه العدل »

ثم عاد ابن تاشفين الى المغرب وفي نفسه شيء من بلاد الاندلس ومن المعتمد ابن عباد .
 اما بلاد الاندلس فقد راقه جمالها وغناها واما ابن عباد فقد ساء منه ارتيابه فيه وعدم
 الفته اياه لما بين الذوق العربي وذوق البربر من الاختلاف . ولقد قال ابن عباد قبل عبور
 ابن تاشفين الى الاندلس « ان مجاورة غير الجنس مؤذنة بالبوار » وربما نصح لابن عباد
 بعض اصحابه كما روى ابن خلكان بان يحذر ابن تاشفين على ملكه ويغتم هذه الفرصة
 ويقبض عليه فوصل هذا الخبر الى ابن تاشفين فتغير على حليفه . وبعد ان عاد ابن تاشفين
 الى بلاده اقام عسكره في الاندلس لمطاردة ملك الافرنج وجنوده فبعد مدة كتب قائد
 هذا العسكر سير ابن بكر الى اميره ابن تاشفين يقول انه قد افتتح معاقل في الثغور ورتب
 فيها حراساً ولكن لا يستقيم لهذه الجيوش ان تقيم بالثغور في ضحك العيش تصاح العدو
 وتماسيه ويحظى ملوك الاندلس من الارزاق برغد العيش « فالظاهر ان هذا القول اصاب
 هو في نفس ابن تاشفين لانه رأى ان سيد البلاد وصاحبها هو الذي يحميها لا الذي
 يأكل خيرها فهدى الى قائده اخضاع ملوك الاندلس مبتدءاً من الثغور وان لا يتعرض لابن

عباد ما لم يستول على البلاد كلها

﴿ نكبة المعتمد ﴾ وكان المعتمد يومئذ في قصره في اشبيلية مشغولاً بنعيم الدنيا . وكان مولعاً بجواربه وحظاياه . ففي ذات يوم قصد ارساله من قرطبة الى اشبيلية فخرج معه بنو يشيعين فسايروهم من اول الليل الى الصبح ثم رجع وانشد في ذلك سائرتهم والميل اغفل ثوبه حتى تبدى للنواظر معلماً فوقفت ثم مودعاً وتسلمت مني يد الاصباح تلك الانجما وكتب من قصره في قرطبة الى ندماء له اصطبحوا بالزهراء القصر المشهور في ضواحيها يدعوم الى الاغتياب في قصره

حسد القصر فيكم الزهراء وعمري وعمركم ما اسأ
قد طلعت بها شمساً نهراً فاطلعوا عندنا بدوراً مسأ
ولكن المعتمد مع اشتغاله بهذه الملاذفانه كان مشغول الفكر من جهة ملكه هو وابناؤه . قيل ان ابنه الرشيد كان في مجلس انس فأمر ابا بكر الاشبيلي بالغناء فغنى يادارمية بالعلياء فالسند اقوت وطال عليها سالف الابد فاستاء وتطير وامر بالغناء من ستارته فغنت احدى الجواري ان شئت ان لا ترى صبراً لمصطبر فانظر الى اي حال اصبح الطفل فاشتد استيأؤه وتطيره فامر جارية اخرى بالغناء فغنت يا لهف نفسي على ماله افرقه على المقلين من اهل المروءات ان اعتذاري الى من جاء يسألني ما ليس عندي من احدى المصيبات وكان ابن اللبانة الشاعر حاضراً فقام وارتجل ابياتاً محامها تطير الامير ووصف ملكه بالقوة والنبات

وكان ذلك في عام ٤٨٣ هـ . ففي العام التالي وصلت جيوش يوسف ابن تاشفين بقيادة سير ابن ابي بكر الى اشبيلية قاعدة ملك المعتمد وحصرته فيها . قال ابن خلكان « وظهر من مصابرة المعتمد (في الحصار) وشدة بأسه وتراميه على الموت بنفسه ما لم يسمع بمثله . والناس بالبلد قد استولوا عليهم الفرع وخامرهم الجزع . يقطعون سبلها سياحة . ويخوضون نهرها سباحة . ويترامون من شرفات الاسوار . فلما كان يوم الاحد لعشرين من رجب سنة اربع وثمانين واربعائة هاجم عسكر الامير يوسف البلد وشنوا فيها الغارات ولم

يتركوا لاحد شيئاً . وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأيديهم » وكان الافرنجي في هذه الحرب يعاونون العرب على جيش ابن تاشفين لخوفهم منه

اما المعتمد فانهم قيدوه وجعلوه مع جميع اهله في سفينة وارسلوه الى المغرب . وفي ذلك قال ابن خاقان في قلائد العقيان « وحملتهم الجوارى المنشئات . وضمتهم كانهم اموات . بعد ما ضاق عنهم القصر . وراق منهم العصر . والناس حشدوا بصفتي الوادي . ليكون بدموع الغوادي » وقال ابن اللبانة في ذلك

نبكي السماء بدمع رائح غادي على البهاليل من ابناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها وكانت الارض منها تحت اوتاد
ياضيف افر بيت المكرمات فخذ في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

وهي قصيدة طويلة . وقال ابو محمد عبد الجبار بن حمد يس الصقلي من قصيدة طويلة ايضاً .

جری لك جد بالكرام عثور وجار زمان كنت منه تجبر
ولما رحلت بالندی في اكفكم وقلقل رضوى منكم وثبر
رفعت لساني بالقيامة قد دنت فهذي الجبال الراسيات تسبر

﴿ شعره وحاله في نكبته ﴾ وقد ارسل ابن تاشفين المعتمد واهله الى « اغات » وهي قرية صغيرة بالقرب من مدينة مراکش بينهما مسافة يوم مشياً وسجنهم فيها واساء في معاملتهم . قال ابن الاثير « فابان بهذا الفعل عن صغر نفس ولؤم قدرة » وصار فضلاء البلاد يرسلون المعتمد بالنظم والنثر وهو في سجنه . اما اهل المعتمد فانهم سجنوا مثله ايضاً وكان بناته يغزلن للناس باجرة لينفقن علىهن . وفي يوم عيد دخل على المعتمد في سجنه بعض بنيه « وفيهم بناته وعليهن اطيار كانهن كسوف وهن اقمار واقدامهن حافية وانار نعمتهن عافية » كما روى ابو النداء . فقال المعتمد فيهن .

فيما مضى كنت بالاعباد مسرورا فجاءك العيد في اغات مأسورا
ترى بناتك في الاطيار جائمة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
بطان في الطين والاقدام حافية كانهن لم تطأ مسكاً وكافورا
لاخذ الا تشكى الجذب ظاهره وليس الا مع الانفاس ممطورا
قد كان دهرك ان تأمره ممثلاً فردك الدهر منهياً ومأمورا

من بات بعدك في ملك يسر به
وتألم المعتمد يوماً من قيده وثقله فأنشد

تبدلت من ظل عز البنود
وكان حديدي سناناً ذليلاً
بذل الحديد وثقل القيود
وعضاً رقيقاً صقيل الحديد
وقد صار ذاك وذا ادهماً
بعض بساقى عض الاسود

ودخل عليه يوماً ولده ابو الهاشم فلما رأى المعتمد والقيود تعض ساقيه « بعدما عيبد نفسه فوق منبر وسرير . وفي وسط جنة وحرير . تحفق عليه الالوية . وتشرق منه الاندييه » بكى وقال

قيدي اما تعلمني مسلماً
دمي شراب لك والعم قد
ايبت ان تشفق او ترحما
اكته لا تهشم الاعظما
يبصرني فيك ابو هاشم
فيلتني والقلب قد هشما
ارحم طفلاً طائشاً لبه
لم يخش ان يأتك مسترحما
وارحم اخيات له مثله
جرعتن السم والعظما
منهن من يفهم شيئاً فقد
خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئاً فما
يفتح الا لرضاع فما

واجتمع عليه بعض الشعراء والخوا في السوء ال فأنشد

سألوا اليسير من الاسير وانه
لولا الحياة وعزة نخية
بسوء الهم لأحق منهم فاعجب
طي الحشا لحكام في المطلب

وللمعتمد اشعار كثيرة في نكبته ولابن اللبانة عدة قصائد فيه وفي البكاء على ايامه . منها ديوان له سماه « نظم السلوك في وعظ الملوك » وقد وفد على المعتمد في اغتات وفادة وفاء لا وفادة استجداء . وله فيه من قصيدة طويلة

لجعت منها باخوان ذوي ثقة
واعنضت في آخر الصحراء طائفة
فاتوا وللدهر في الاخوان آفات
لغاتهم في جميع الكتب ملغاة

يعني البربر اي ابن تاشفين وعسكره . وكانت وفاة المعتمد في سجنه في سنة ٤٨٨ هـ « فنودي في جنازته بالصلاة على الغريب بعد عظم سلطانه وجلالة شأنه » وقد رثاه الشعراء عند قبره . منهم شاعره المخلص به ابو بحر عبد الحميد فقد انشد على قبره قصيدة اولها ملك الملوك اسامع فاناديه ام قد عدت لك عن السماع عوادي

لما نقلت عن القصور ولم تكن فيها كما قد كنت في الاعياد
 اقبلت في هذا الثرى لك خاضعاً وجعلت قبرك موضع الانشاد
 ولما فرغ من انشادها قتل الثرى وعثر خده فابكى كل من حضر
 قال ابن خلكان : ورأى ابن اللبانة حفيداً للمعتمد اتخذ الصياغة صناعة وهو غلام
 وسيم وكان يلقب في ايام دولتهم « نغر الدولة » فنظر اليه وهو ينفخ الفم بقصبة الصانع فقال
 من قصيدة طويلة

يا صائغاً كانت العليا تصاغ له حلياً وكان عليه الحلي منتظماً
 لنفخ في الصور هول ما حكاها سوى اني رأيتك فيه تنفخ الفم
 وددت اذ نظرت عيني عليك به لو ان عيني تشكو قبل ذلك عمى

❖ **دولة الموحدين** ❖ تلك قصة المعتمد بن عباد اشهر ملوك الاندلس في زمنه .
 ولا تشبهها في التاريخ العربي قصة غير قصة البرامكة وكتبتهم في المشرق . على ان العدالة
 الابدية التي تدبر شؤون هذه الحياة بنواميسها الازلية الثابتة قد سلطت على ذرية يوسف
 ابن تاشفين الذي فعل ببني عباد هذه الفعلة الشنعاء من فعل بها مثلاً . فاقامت دولة
 « الموحدين » في المغرب على دولة « المرابطين » كما قامت دولة المرابطين على ملوك الاندلس
 وليبيان ذلك نقول باختصار

نقدم في الصفحة ٨ ان قبائل المصامدة في جبال اغمات كانت اشد القبائل بأساً وان
 يوسف ابن تاشفين بنى مراکش واتخذها مقاماً له لاختضاع تلك القبائل . ففي سنة ٥١٤
 للهجرة اي بعد انقضاء ٢٦ عاماً على وفاة المعتمد بن عباد ظهر من المصامدة رجل يدعى
 عبد الله بن تومرت وتعرف قبيلته بقبيلة هرغة وهي قبيلة نزلت في تلك البلاد لما فتحها
 المسلمون مع موسى بن نصير . وكان هذا الرجل عالماً بالشرعية فسافر الى بلاد الشرق وحج
 ثم عاد الى المغرب عن طريق الاسكندرية . فعند عودته صار يامر بالمعروف وينهى عن
 المنكر فاجتمع الناس عليه واجلوه ولقيه في ملالة رجل يدعى عبد المؤمن بن علي فاتفق معه .
 ولما قدم الى مراکش عاصمة يوسف ابن تاشفين وجد فيها من المنكرات اكثر مما وجدته في
 طريقه فزاد في امره بالمعروف . واتفق انه رأى في ذات يوم اخت الامير يوسف في موكبها
 ومعه من الجوارى الحسان عدة وهن مسفرات (لان العادة كانت في دولة الموحدين ان يسفر
 نساؤهم ويتأثم رجالهم) فهم على الموكب مع اصحابه وامرهن بستر وجوههن وضرب دواهن

فسقطت اخت الامير عن دابتها . فاحضره الامير يوسف بين يديه وامر الفقهاء ان ينظروه فقال له احدهم ان هذا الرجل لا يريد الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وانما يريد اثارة فتنة ليغلب على بعض النواحي . فاخرجوه من مراکش فذهب الى قبائل المصامدة وصار يعظهم ويدكرهم بما حدث من الظلم والفساد وانه لا يجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل بل الواجب قتالهم وانه لا بد من ظهور المهدي الذي بشر به . فقال له بعض السامعين وفيهم عبد المؤمن انت المهدي . فبايعوه وسماهم المهدي « موحدين » فلما بلغ ذلك الى الامير يوسف ارسل عليهم جيشا فهزموه وبذلك قويت قلوبهم . قال ابن الاثير : وكان ليوسف بن تاشفين عدة ممالك من الروم والفرنج يغلب على الوانهم الشقرة وكان في كل عام يخرجون مرة الى جبال المصامدة ليحجوا الضرائب منها فكانوا يطردون الرجال وينامون في المنازل . فلما جاء المهدي الجديد سأل قومه مالي اراكم سمر الالوان وارى اولادكم شقرا زرقا فاخبروه ذلك الخبر . ففتح الصبر على هذا وامرهم بقتل اولئك الممالك حين قدومهم والاستقلال بالجبل ففعلوا وازدادوا جرأة على جرأة

ثم استنحل امر هذه القبائل وحصر وراکش وصاحبها علي بن يوسف بن تاشفين لان يوسف كان قد توفي فعادوا عنها بالخبيثة . وفي اثناء ذلك توفي المهدي وسلم الامر الى عبد المؤمن واوصى اصحابه بطاعته . ففتح عبد المؤمن البلاد واخذ مراکش كرسي دولة المرابطين . وكان فيها جيش من الافرنج استنجد به المرابطون كما روى ابن الاثير . وكان صاحب مراکش اسحق بن علي بن يوسف بن تاشفين وهو فتي فلما وصل الموحدون الى القصر واخرجوا من فيه للقتل صار اسحق الفتي يرتعد رغبة في البقاء ويدعوا لعبد المؤمن ويبيكي . فقام اليه الامير سير بن الحاج وكان الى جانبه مكتوبا فبصق في وجهه وقال : تبكي على ابيك وامك اصبر صبر الرجال فهذا رجل لا يخاف الله ولا يدين بدين . فقام اليه الموحدون بالخشبة فقتلوه . وقدم اسحق على صغر سنه فضربت عنقه سنة ٥٤٣ وهو آخر ملوك المرابطين وبه انقضت دولتهم . وكانت مدة ملكهم سبعين سنة وولي منهم اربعة : يوسف وعلي وتاشفين واسحق . وكما اسقط الموحدون المرابطين في افريقيا اسقطوهم في الاندلس وبذلك انتقموا الملوكها الغافرين

* * *

فيرى القارى فيما مر في هذه الترجمة تاريخ ثلاث دول مهمة . (الاولى) دولة بني عباد التي قامت في اشبيلية وقرطبة وما جاورها . (والثانية) دولة ابن تاشفين (المرابطين)